

إحياء التراث العربي وتجديده في عصر المماليك

١

لعل عصرًا لم يظلمه الباحثون المعاصرون من عرب ومستشرقين كما ظلم العصر الممتد من سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ للهجرة إلى سقوط دولة المماليك المصرية الشامية في أيدي العثمانيين سنة ٩٢٣هـ فقد سَمَّوه خطأ باسم العصر المغولي ونعتوه بأنه كان عصر انحطاط وضعف في جميع شئون الحياة العقلية والأدبية، وقالوا: إن العلماء والأدباء عاشوا فيه بالقياس إلى أسلافهم معيشة التابع للمتبع، معيشة تقليدية خامدة جامدة.

وهو حكم جائر، كُتب له أن يذيع ويشيع على الألسنة، وأن يُلقى أستاذًا صفيقة على هذا العصر تحجب حقائقه العلمية والأدبية عن أنظار الباحثين المعاصرين، بحيث لا نسمع منهم إلا كلاً ما معادًا مكرَّرًا عن تعطل النهضة العربية فيه وجفاف ينابيعها الثرة وأن الشرق العربي قضى عليه حينئذ بالخمول وألا يحتفظ إلا بشيء ضئيل نحيل من حضارة الأسلاف وما اتصل بها من علم وأدب. وهو كلام يلقي على عواهنه دون فحص وبحث، فهل حقًا كانت بغداد حين اكتسحها السيل المغولي حاملة لواء حضارتنا العربية وحدها، بحيث إذا قَوَّض المغول ما بها من تلك الحضارة العتيدة تداعت أركانها ولم تقم لها قائمة أو أن بلدانًا عربية كثيرة شاركتها في حمل هذا اللواء منذ أجيال بعيدة، بحيث كُتب له ألا يسقط حين يصيب يدها من الشلل السياسي ما يحول بينها وبين المشاركة في حمله ورفعها؟ الحق أن بلدانًا عربية متعددة مثل حلب ودمشق والقاهرة وقرطبة أخذت منذ القرن الرابع الهجري تزاخم بغداد بمناكب ضخمة وأيد قوية صلبة في رفع هذا اللواء إلى أجواز الفضاء.